Coptology

الحوار اللاهوتي الكنسي والصراع السياسي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

الحوار اللاهوتي الكنسي، والصراع السياسي

يبدو أنه لا مجال للمقارنة. هذا صحيح، إذا اختلف هدف الذين يريدون الحوار. ففي عالم السياسة، كسب الأصوات وجمع الفلول، تسعى إليه كل الزعامات السياسية، بل ترتب وتنظم وسائل جمع الأتباع. أما في الحوار اللاهوتي الكنسي، فالهدف هو الحقيقة. وإن شئنا الدقة، هو الحق لا الحقيقة؛ لأن الحق في المسيحية الأرثوذكسية هو المسيح الإله الحق المتجسد. فهو شخصٌ وليس فكرةً مجردةً.

يحاول السياسيون من خلال الأحزاب وبوسائل متنوعة، إظهار أخطاء الجانب الآخر بأقل تكلفة، وذلك بإطلاق العموميات من الأوصاف مثل "عدو الشعب" و"خائن لمبادئ الثورة"، أو "ضد نظام الحكم"، وأضافت الشيوعية في زمان قوتها: "طفيلي"، أي يعيش على إنجازات الشعب، وهو اتهامٌ عام زج بكثير من أعظم مفكري روسيا في معتقلات ستالين، مثل باختين وسولجنيتسين صاحب رواية "عنبر السرطان"، وباسترناك صاحب "د. جيفاكو".

وانهيار الأنظمة الاستبدادية هو انهيارٌ حتمي؛ لأن أي نظام استبدادي يفشل في فهم التغيرات التي تحدث حوله. والقمع لم يكن حلاً، وهو ما سجَّله تاريخ الإنسانية. وسقوط كل الأنظمة الشمولية هو سقوطٌ مؤكَّد؛ لأن الجمود يقتله، ومحاولة فرض الجمود على كل مظاهر الحياة، هي بمثابة إدخال سكين حاد في بطء شديد يصل إلى القلب بعد فترة زمانية لكي يقتل الحياة. وهنا يصبح الزمان نفسه أحد جوانب المشكلة، لا أحد الحلول؛ لأن مرور الأيام، وتعذُّر الاستجابة للتطور هو زيادة الجمود.

أما الحوار اللاهوتي، فهو حوارُ محبةٍ، وهو حوارُ بحثٍ عن الحق، وعن وسائل التعبير عن الحق في الأسفار المقدسة وصلوات الكنيسة وما كُتب عبر التاريخ الكنسي

وما وصلت إليه المجامع الكنسية، التي لم تكن مجرد عقد اجتماعات لجمع الأصوات وبالتالي يكون الفوز للأغلبية، بل هدف المجامع الكنسية كان دائماً هو البحث عن الحق، وعن التعبير عن الحق، أي يسوع في إطار الثوابت. والجماعة هنا هي تعبير عن تعدد الشهادة لا عدد الأصوات. الشهادة هنا هي بأن ما قُرر هو صحيح في ضوء ما قبله، وفي ضوء الممارسة، وفي ضوء الخبرة، لا بحساب الأصوات.

إن معركة فرض تعليم كنسي بواسطة الإعلام، هي معركة سياسية خاسرة، وكلما مر الزمان كلما زادت الخسارة؛ لأن للتعليم تاريخ مدوَّن، وإن حُجِبَ في فترات الضعف، فهو سوف يظهر؛ لأن الزمان هنا، بعكس الصراع السياسي، يقف مع إعادة اكتشاف الحق، ومع التمسك بما هو صحيح، طالما أنه يمارَس في الحياة الكنسية.

كان من المستحيل هدم أُلوهية الابن بسببٍ من الممارسة، وهي نوال نعمة التبني في المعمودية وشركة الحياة الأبدية والقيامة كلٍ أحد في القداسات. وكنت قد ذكرتُ في اجتماع قاده الراحل الكريم د. صموئيل حبيب، إن القضاء على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية مستحيلٌ، طالما بقى القداس هو نبض الكنيسة. الشهادة هنا هي في الصلاة باسم يسوع، ونوال حياته في السر المجيد.

الحوار اللاهوتي الكنسي يستند ليس إلى التاريخ وحده أو الأسفار وحدها أو كتابات الآباء وحدها، بل أيضاً يستند إلى حياة القديسين. فالحياة شهادة دُوِّنت في الكتب، ولكنها أيضاً تطالعنا في الوجود الحي، في الأيقونات، وفي سلوك القديسين، وفي التمسك بالحق "حتى النفس الأخير".

يبحث الحوار اللاهوتي عن الإنسان – عن حريته – عن مصيره الأبدي – عن وجوده ككائن حي، لا عن الانتماء ولا عن مكانة الإنسان في شيعة، بل عن الإنسان كعضو في الجماعة الأعظم من كل الشيع، التي نالت مكانةً مجيدةً، وهي أنها صارت "جسد المسيح الواحد"، فصارت الجماعة تنتمي إلى المتجسد لا بالكلمات، بل بذات الحياة الإنسانية الواحدة التي أخذها ابن الله.

وإذا كان الصراع السياسي يفضِّل نظاماً معيناً وشريعةً ودستوراً يفرضه بالقوة إذا دعت الضرورة. فإن الحوار اللاهوتي الكنسي، لا يستند إلى نظام معين، وهو ما يتضح من الفهم الخاطئ للكلمة اليونانية – القبطية "**طقس**"، فهي ليست مجرد "نظام أو ترتيب" كما يُشاع في الثقافة الشعبية، بل هي تعني "**ترتيب اتحاد النفس بالمسيح، ترتيب تطهير النفس واستنارتها ثم اتحادها**". وحتى القانون الكنسي الذي تطور عبر مئات السنين لا يمكن أن يحل محل الإيمان؛ لأن الأساس هو يسوع المسيح، وهو ليس فكرةً تحتاج إلى قانون، بل هو شخصٌ يُستعلَن في حياة الذين بحريةٍ اختاروه.

د. جورج حبيب بباوي